

Ideology and Revolution: A Study of the Nature of Influence

أ. بورابة محفوظ*

أستاذ مساعد (أ) جامعة عمار ثليجي بالاغواط

m.bouraba@lagh-univ.dz

تاريخ إرسال المقال: 2025/01/19 تاريخ قبول المقال: 26/02/2025 تاريخ نشر المقال: 2025/03/20

الملخص:

هدفنا من خلال هذا البحث إلى استكشاف طبيعة التأثير الذي تشكله الأيدولوجيا في سياق الثورات. وحاولنا الإجابة على سؤال محوري وهو: كيف تؤثر الأيدولوجيا على الثورات: وهل الأيدولوجيا قوة دافعة وراء الثورات، أم أنها عائق يحول دون تحقيق أهدافها؟ وعملنا على تحليل كيفية مساهمة الأيدولوجيات في إشعال فتيل الثورات، وكيف يمكن أن تؤثر على مسارها ونتائجها، سواء بشكل إيجابي أو سلبي، وتوصلنا إلى أن هناك شبه إجماع بأن الأيدولوجيا تلعب دوراً حاسماً في الثورات، ولكن تأثيرها ليس دوراً جامداً أو محدداً. فالأيدولوجيا يمكن أن تكون قوة إيجابية تساهم في تحقيق التغيير، ولكنها يمكن أن تكون أيضاً قوة سلبية تعيق التغيير. ولذلك، فإن فهم طبيعة العلاقة بين الأيدولوجيا والثورات أمر بالغ الأهمية لتطوير استراتيجيات ناجحة لتحقيق التغيير الاجتماعي والسياسي.

الكلمات المفتاحية: الأيدولوجيا، الثورة، التغيير الثوري.

Abstract:

This research investigates the multifaceted influence of ideology on revolutionary processes. We address the core question: How does ideology shape the dynamics of revolution – does it serve as a catalyst or an impediment to its goals? Our analysis examines how ideologies contribute to the emergence of revolutionary movements and subsequently influence their trajectory and eventual outcomes, encompassing both positive and negative consequences. The findings

suggest a broad agreement on the pivotal role of ideology in revolutions, while acknowledging its multifaceted and unpredictable impact. Ideology can act as a powerful force for positive transformation, yet it can also become a source of rigidity and internal conflict, hindering the achievement of revolutionary objectives. Consequently, comprehending the intricate relationship between ideology and revolution is crucial for formulating effective strategies to achieve meaningful social and political change.

Keywords: Ideology, Revolution, Revolutionary change

المقدمة:

تعتبر الأيدولوجيا من المفاهيم المحورية في فهم الديناميات الاجتماعية والسياسية، فهي بمثابة الخارطة الفكرية التي توجه سلوك الأفراد والجماعات وتشكل رؤيتهم للعالم. وفي سياق التغيير الثوري، تبرز الأيدولوجيا كقوة محركة تسعى إلى تحويل الأنظمة القائمة وإقامة نظم جديدة تعتمد على مبادئ وأفكار مختلفة. إلا أن هذا الدور المحوري للأيدولوجيا يثير تساؤلات جوهرية حول طبيعة علاقتها بالثورة، فهل هي القوة الدافعة التي تشعل شرارة التغيير أم أنها العائق الذي يقف في طريق تحقيق التطلعات الثورية؟

يشكل هذا السؤال محور بحثنا هذا، حيث نسعى إلى استكشاف الدور المتغير للأيدولوجيا في السياق الثوري. سنقوم بتحليل مختلف الآراء التي تدور حول هذا الموضوع، بدءاً من تلك التي تؤكد على دور الأيدولوجيا في توفير الإطار الفكري والسياسي للحركات الثورية، وصولاً إلى تلك التي ترى فيها عامل ضعف يعيق قدرة الحركات على التكيف والتطور. كما سنستعين ببعض الأمثلة المختلفة لتقييم مدى صحة هذه الآراء وتحديد الظروف التي تجعل الأيدولوجيا محركاً للتغيير أو عائقاً أمامه.

أهمية البحث:

إن فهم طبيعة العلاقة بين الأيدولوجيا والثورات أمر بالغ الأهمية لتفسير مسار التغيرات الاجتماعية والسياسية، وتقييم إمكانية تحقيق التغيير الثوري من خلال الأيدولوجيا. ففهم هذه العلاقة المعقدة تتطلب تحليلاً دقيقاً. فمن جهة، يمكن القول بأن الأيدولوجيا تمثل القوة الدافعة وراء الكثير من الثورات، فهي توفر الإطار الفكري والسياسي الذي يوحد الجماهير ويوجه جهودها نحو تحقيق هدف مشترك. كما أنها تعمل على زيادة الحماس والتشجيع على التضحية من أجل تحقيق التغيير المنشود. ومن جهة أخرى، يمكن القول بأن الأيدولوجيا قد تكون عائقاً أمام التغيير الثوري في بعض الحالات. فالتشبث بأفكار أيدولوجية جامدة قد يمنع

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

الحركات الثورية من التكيف مع التغيرات المتسارعة في الواقع، ويؤدي إلى تعصب أيديولوجي يعيق الحوار والتفاهم مع الآخرين. كما أن الأيديولوجيا قد تستخدم أحياناً لتبرير العنف والتطرف، مما يؤدي إلى نتائج عكسية وتقويض أهداف الثورة.

إشكالية البحث

لطالما كانت الأيديولوجيا حاضرة بقوة في المشهد الثوري، فهي قد تشكل القوة الدافعة التي تحرك الجماهير وتوجه سلوكها نحو تحقيق أهداف معينة. لكن من جهة أخرى يمكن أن تشكل عائق يقف في تحقيق أهداف الثورة. والسؤال المطروح:

كيف تؤثر الأيديولوجيا على التغيير الثوري؟

يمكن تقسيم هذه الإشكالية إلى أسئلة فرعية أكثر تحديداً:

- هل الأيديولوجيا محرك أساسي للتغيير الثوري؟
- هل تمثل الأيديولوجيا قوة دافعة توحد الجماهير وتوجه جهودها نحو تحقيق التغيير المنشود؟
- أم أنها عامل يحد من قدرته على تحقيق أهدافه؟
- هل تتحول الأيديولوجيا إلى قيد يمنع الحركات الثورية من التكيف والتطور؟

فرضيات البحث:

هذه مجموعة من الفرضيات لتفسير العلاقة المعقدة بين الأيديولوجيا والثورة. هذه الفرضيات، يمكن اعتبارها إجابات مؤقتة للسؤال المحوري والاسئلة الفرعية آنفة الذكر حول الدور الذي تلعبه الأيديولوجيا في نشوء الثورات وتطورها.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

- هناك علاقة تكاملية بين الأيدولوجيا والثورة، حيث تشكل الأيدولوجيا حافزاً ودافعاً للثورة وتوفر لها الإطار الفكري والسياسي.
- لا يمكن للثورة أن تندلع أو تستمر بدون وجود أيدولوجيا موحدة تجمع صفوف الثوار وتوجه أهدافهم.
- الأيدولوجيا هي نتاج للثورة وليست سبباً لها، حيث تنشأ الأيدولوجيات الجديدة في سياق الصراع الثوري وتستجيب للتحديات التي تواجهه.
- تؤدي التعددية الأيدولوجية داخل الحركة الثورية إلى ضعفها وتشتتها.
- تختلف طبيعة العلاقة بين الثورة والأيدولوجيا باختلاف السياق التاريخي

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى استكشاف الدور المتعدد الأوجه للأيدولوجيا في سياق الثورات. نسعى للإجابة على سؤال محوري: هل الأيدولوجيا قوة دافعة وراء الثورات، أم أنها قد تكون عائقاً يحول دون تحقيق أهدافها؟ سنعمل على تحليل كيفية تساهم الأيدولوجيات في إشعال فتيل الثورات، وكيف يمكن أن تؤثر على مسارها ونتائجها، سواء بشكل إيجابي أو سلبي

المقاربة النظرية:

تعتبر النظرية البنائية من أهم النظريات التي تحاول فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية من خلال التركيز على دور الهوية والأيدولوجيا والثقافة والأفكار. وقد سعى البنائيون إلى تفسير الثورات كظواهر اجتماعية متأصلة في بنية النظام الاجتماعي.

تهدف النظرية البنائية الوظيفية إلى فك شفرة ظاهرة الثورة من خلال تحليل بنية النظام الاجتماعي وقيمه. ترى هذه النظرية أن التغيير الثوري ينشأ عندما تفشل القيم السائدة في تفسير التغيرات البيئية

المحيطة، مما يؤدي إلى اختلالات وظيفية. يرى ميرتون (Robert. K. Merton) أن هذه الاختلالات يمكن أن تقضي إلى التمرد، وإذا ما قاومت السلطة هذا التمرد، فإن التغيير يأخذ طابعاً ثورياً. بعبارة أخرى، فإن البنائية الوظيفية تربط بين التغيير الثوري وتطور الأنظمة القيمية في المجتمع.

مخطط البحث:

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال الخطة البحثية التالية:

- مقدمة
- أولاً: تعريف الأيديولوجيا والثورة.
- ثانياً: الأيديولوجية كمحرك للتغيير الثوري.
- ثالثاً: الأيديولوجيا كعائق للتغيير الثوري
- الخاتمة

أولاً: تعريف الأيديولوجيا والثورة.

قبل الخوض في تحليل طبيعة تأثير الأيديولوجيا على الثورة، من الضروري أن نحاول تحديد تعريفات واضحة للمفاهيم الأساسية التي يدور حولها هذه العلاقة. فكل من مصطلحات «الثورة»، «الأيديولوجيا»، تحمل في طياتها دلالات واسعة ومتشعبة.

1- تعريف الأيديولوجيا

تعتبر الأيديولوجيا من أهم المفاهيم التي شغلت بال المفكرين والباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي القوة الدافعة وراء الكثير من التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تشهدها البشرية.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

ولقد تطورت هذه الفكرة عبر التاريخ، وتعددت حولها الآراء والتفسيرات، مما يجعلها موضوعاً مثيراً للاهتمام والدراسة.

لغويا: تعود أصول الكلمة الى الفكر اليوناني، فالكلمة يعبر عنها في اللغة الإنجليزية بالمصطلح (ideology)، وهذه الكلمة كما نرى تتألف من مقطعين، هما: المقطع (idea)، والمقطع (Logy). والمقطع الأول في اللغة اليونانية يقابل كلمة (idea) التي تعني فكرة، أو ما هو متعلق بالفكر. وأما المقطع الثاني فيقابل المقطع اليوناني (logos) أي علم. وإذا ما حاولنا أن نقيم المركب منهما لوجدنا أن هذا المصطلح يعين (علم الأفكار)، أو ذلك العلم الذي يدرس ما هو متعلق بالفكر.

أما في اللغة العربية وعلى الرغم من انتشار كلمة «أيديولوجيا» واستخدامها الواسع، إلا أن البحث عن بديل عربي دقيق لها لا يزال قائماً. وقد اقترح بعض اللغويين مصطلحات مثل «مذهبية» أو «فكرية» أو «أدلوجة» كبدايات محتملة، ولكنها لا تغطي جميع جوانب المعنى. وفي النهاية، يمكن القول إن «الأيديولوجيا» أصبحت مصطلحاً راسخاً في اللغة العربية، حتى ولو كان أصلها أجنبياً.

أما من الناحية الاصطلاحية : فمنذ ظهور هذا المصطلح لأول مرة في مؤلفات المفكر الفرنسي أنطوان دي تراسي (Antoine De Tracy) في نهاية القرن الثامن عشر وتقديمه من قبله على أنه (علم الأفكار)، وذلك في كتابه الشهير (مشروع لعناصر الأيديولوجيا: قواعد اللغة والمنطق) الذي نشره عام 1801، شغل المصطلح اهتمام عدد كبير من الباحثين والمفكرين في مختلف مجالات العلم والفكر، الأمر الذي تطور بمرور الزمن مما ساعد على «تعويم» استخدام المصطلح بل التعسف أحياناً كثيرة في طرحه وتناوله.

فدي تراسي كان يقصد به «علم الأفكار» (Science of ideas) ذلك المنهج الجديد الذي يمكن من خلاله التوصل الى الحقيقة اعتماداً على التفكير والتحليل وبالتالي القضاء على الأوهام والمبررات الميتافيزيقية في تفسير الظواهر. ويبدو واضحاً أن هذا الفيلسوف الفرنسي عندما بدأ في تأسيس علم الأفكار (الأيديولوجيا) التزم بالمعنى اللغوي المقابل للمصطلح وضمنه نظاماً متكاملًا من الخطوات المنهجية يتم الاعتماد عليها في الوصول الى الحقيقة «الكلية» مستبعداً كل التبريرات التي يصنعها البشر أنفسهم فيستغنون بما يملكون من تفسيرات جاهزة للظواهر عن دراستها وفحصها بشكل متعمق يصل الى اجابات جديدة وأسئلة أخرى.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

أما عند كارل ماركس (Karl Marx) والماركسيين عموماً فقد اتسم مصطلح الأيدولوجيا بطابع «محقر»، فالأيدولوجيا عنده هي مفهوم يقلب الأشياء رأساً على عقب «إنها الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس عن أنفسهم بهدف تبرير بعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تقرضها الطبقة المهيمنة في المجتمع على باقي أفراد وطبقات المجتمع»¹.

أما كارل مانهايم (K. Mannheim) فيعرفها في كتابه (الأيدولوجية والطوباوية) الذي نشره عام 1936 بأنها «الأفكار المشوهة التي تطلقها الطبقة الحاكمة لتحافظ على النظام الاجتماعي الحالي، أو النظام الاجتماعي السابق، أو هي التعبير الفكري لجماعة من الجماعات، وهذا التعبير يساعدها على تحقيق أهدافها وطموحاتها»².

وقد عرف أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci) الأيدولوجيا على أنها تضم «مجموع البنى الفوقية الثقافية، ويجمع فيها الحقوق والفن والدين وكذلك العلم»³. أما لوي ألتوسير (L. Althusser) فيعرفها أنها «نسق له منطقته ودقته الخاصتين من التمثيلات (من صور وأساطير وأفكار وتصورات حسب الأحوال) يتمتع، داخل مجتمع ما، بوجود ودور تاريخيين»⁴.

بينما يرى ريمون آرون (Raymond Aron) «أن الأيدولوجيا ليست ذات نظرة ضيقة بل على العكس من ذلك، تتسم بالشمولية التي تجعل من وظيفتها تلقي مع مفهوم رؤية العالم، من خلال كونها نظام شامل لا ينفصل عن الفضاء الاجتماعي والسياسي، أين يستطيع الأفراد فيها تشكيل تصور شامل لتفسير وجودهم وتنظيم علاقاتهم، فهي نظام شامل لتغيير العالم»⁵.

أما جوزيف غابيل (Joseph Gabel) فيقول: «هي منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعياً بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو غيرها، منظومة تعبر بدون تبادل عن المصالح الواعية بهذا القدر أو ذاك

¹ محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، الأيدولوجيا، (دار توفيق للنشر، الطبعة الثانية، 2006)، ص-ص 43-44.

² كارل مانهايم، الأيدولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، تر: وتقديم محمد رجا عبد الرحمن الديري (الكويت: شركة المكتبات الكويتية، ط1، أكتوبر 1980)، ص 129.

³ محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص 36.

⁴ نفس المرجع، ص 08.

⁵ عموري السعيد، «الأيدولوجيا / الخطاب/ النص نحو مقاربة مفاهيمية»، مجلة الأثر، العدد (18)، (جوان 2013)، ص 142.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

لهذه المجموعة على شكل نزعة مضادة للتاريخ، ومقاومة للتغيير ومفككة للكلديات. إنها تشكّل التبلور النظري لشكل من أشكال الوعي الخاطيء⁶.

بينما اعتبر الدكتور علي عبد المعطي محمد، الأيدولوجيا بأنها «نسق من المعتقدات والمفاهيم والأفكار الواقعية والمعارية على حد سواء، يسعى في عمومها إلى تفسير الظواهر الاجتماعية المركبة من خلال منظور يوجه ويبسط الاختيارات السياسية الاجتماعية للأفراد والجماعات»⁷.

ويقدم لنا الدكتور محمد علي أبو ريان تعريفا مهما للأيدولوجيا إذ يؤكد أن «الأيدولوجية تنطوي على مجموعة من العقائد الأفكار والتصورات والمشاعر والتقاليد والآمال والظروف الزمانية والمكانية التي تؤثر في أنماط السلوك للأمة والجماعة. ومن ثم فلا بد من ملاحظة الارتباط الوثيق بين الفكر والعمل في مكونات الأيدولوجية»⁸.

إن هذه التعريفات السابقة للأيدولوجيا تبين مدى التباين الشديد حول هذا المفهوم فبينما تستخدم في بعض الأحيان للإشارة إلى مفهوم واسع يشمل كل جوانب الحياة الفكرية والثقافية، تستخدم في أحيان أخرى للإشارة إلى مفهوم ضيق يقتصر على الجانب السياسي فقط. لذلك فإن تحديد مفهوم دقيق للأيدولوجيا يواجه تحديات كبيرة بسبب مرونة هذا المصطلح واستخدامه في سياقات مختلفة ومتباينة.

2- تعريف الثورة

لطالما شكلت الثورات الشعبية محرّكًا للتغيير والتطور عبر التاريخ، حيث كانت بمثابة انفجار للطاقة الكامنة في الشعوب الساعية إلى التحرر من القيود والظلم. هذه الانفجارات، التي غالبا ما تكون عنيفة ومؤلمة، قد أسفرت عن تحولات عميقة في المجتمعات السياسية والاجتماعية والثقافية.

⁶ محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، مرجع سبق ذكره، ص 19.

⁷ عبد الله عبد الوهاب محمد الأنصاري، الأيدولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة: دراسة مقارنة بين كارل مانهايم وتوماس كون، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الإسكندرية، 2000)، ص 19.

⁸ نفس المرجع، ص 19.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

إلا ان مصطلح الثورة مثل غيره من المصطلحات السياسية والاجتماعية حمل في طياته دلالات متنوعة ومتشعبة، تجاوزت المعنى اللغوي البسيط لتصل إلى المستوى الاصطلاحي الذي يعكس التطور التاريخي للمفهوم.

فلغويا: يعود أصلها الى علم الفلك وبالتحديد الى كتاب نيكولاس كوبرنيكوس (Des révolutions des orbes /des sphères célestes) وترجمتها بالعربية (في دورات الكواكب أو الاجرام السماوية) وقد احتفظت الكلمة بمعناها العلمي اللاتيني الدقيق، أي الحركة الاعتيادية الدائرية للنجوم وهذه الحركة هي خارج تأثير الإنسان ومن ثم فهي لا تقاوم، إن الكلمة تشير بوضوح إلى حركة دائرية متكررة، إنها ترجمة لاتينية بالغة الدقة لمصطلح وضعه كوبرنيكوس في علم الفلك، ومن ثم انتقلت الى السياسة استعارة ومجازا لتدل على فكرة التداول على السلطة بين الافراد والجماعات بتكرار أزلي وبالقوة ذاتها التي لا تقاوم وتجعل النجوم تسير في الدروب المرسومة لها في السموات، وهي تحمل الفكرة التي تقيد بحركة أزلية متكررة باستمرار للحركات الاعتبائية، لتقلبات المصير الإنساني صعودا ونزولا، والتي شبهت بالشروق والغروب للشمس والقمر والنجوم منذ الأزل.

أما في اللغة العربية فحسب الباحث محمد عمارة فإن العرب والمسلمون الأوائل قد عرفوا مصطلح الثورة واستخدموه، وكان يعني عندهم ضمن ما يعني: الهياج والانقلاب، والتغيير، والثوب، والانتشار، والغضب.. بل لقد دلت بعض مشتقات هذا المصطلح على نمط في البحث والتفكير يتسم بالعمق والغوص وراء المعاني وقلب الظواهر وتجاوزها بحثا عن المكونات.⁹

أما من الناحية الاصطلاحية : فتختلف الرؤي لمفهوم الثورة بسبب تنوع الفهم للمصطلح وتنوع إقترابات المفكرين منه، كل حسب أيديولوجيته وحسب اختصاصه، فنجد من يستخدمه للدلالة على تغييرات فجائية وجذرية تتم في الظروف الاجتماعية والسياسية، أي عندما يتم تغيير حكم قائم وتغيير النظام الاجتماعي والقانوني المصاحب له بصورة فجائية، وأحيانا بصورة عنيفة¹⁰.

كما يستخدم المصطلح للتعبير عن تغييرات جذرية في مجالات غير سياسية كالعلم والفن والثقافة لأن الثورة تعني التغيير، واستخدم مفهوم الثورة بالمعنى السياسي في أواخر القرون الوسطى، كما يستخدم في علم الاجتماع السياسي للإشارة إلى التأثيرات المتبادلة للتغييرات الجذرية والمفاجئة للظروف والأوضاع الاجتماعية

⁹ محمد عمارة، الإسلام والثورة، (القاهرة: دار الشروق، ط 3، 1988) ص 11.

¹⁰ عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الأول 1979)، ص 870.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

والسياسية. وتعرفها موسوعة علم الاجتماع بأنها: «التغييرات الجذرية في البنى المؤسسية للمجتمع، تلك التغييرات التي تعمل على تبديل المجتمع ظاهريا وجوهريا من نمط سائد إلى نمط جديد يتوافق مع مبادئ وقيم وإيديولوجية وأهداف الثورة، وقد تكون الثورة عنيفة دموية، كما قد تكون سلمية، وتكون فجائية سريعة أو بطيئة تدريجية»¹¹.

فكلمة ثورة لها معان كثيرة، غير أن معظم علماء الاجتماع على ما يقول فيليكس جروس (Feliks Gross)، في كتابه «الاستلاء على السلطة السياسية في قرن من الثورات» يفضلون استخدام اللفظ للدلالة على حركة تلقائية مترتبة على عملية اجتماعية طويلة الأمد. فالثورة لا تنشب إلا إذا نجمت عنها تغيرات عميقة تتناول الأوضاع الاجتماعية وخاصة الأوضاع التنظيمية، وكانت وليدة عملية من التفكك والانحلال أصابت النظام القديم.¹²

أما يوري كرازين (Yuri Karazin) فينظر لها بمنظار الأدبيات الماركسية في تحليل التطور الاجتماعي ويقول «إن معنى الثورة الاجتماعية ووظيفتها لا يمكن فهمها إلا حينما ننظر إلى تاريخ المجتمع على حقيقته كسلسلة متصلة من التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية، والثورة شكل من أشكال الانتقال من تشكيل إلى آخر، كما أنها قفزة من التشكيل الاقتصادي والاجتماعي البالي إلى تشكيل أكثر تقدما، تكون الخاصة المميزة السائدة له ومضمونه السياسي هو انتقال السلطة إلى الطبقات الثورية»¹³.

وتعرفها ثيدا سكوكبول (Theda Skocpol) بأنها «تحول سريع وأساسي في حالة مجتمع ما وهيكلياته الطبقيّة، وهو يترافق مع تمردات طبقية من أدنى المستويات، وهي تنجز جزئيا هذا التحول»¹⁴

ويعرفها صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) بأنها «تحول محلي سريع، أساسي وعنيف في القيم والأساطير المسيطرة في مجتمع ما، وفي مؤسساته السياسية، وبنية الاجتماعية، وقيادته وأنشطته الحكومية وسياساته»¹⁵.

¹¹ شعبان الطاهر الأسود، علم الاجتماع السياسي قضايا العنف السياسي والثورة. (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 2003)، ص 46-47.

¹² راشد البراوي، «الثورة والانقلاب»، مجلة الهلال، العدد (6)، (01 يونيو 1965)، ص 49.

¹³ يوري كرازين، علم الثورة في النظرية الماركسية، تر: سمير كرم. (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1975)، ص 41.

¹⁴ جون فوران (محرر)، مستقبل الثورات، تر: تانيا بشارة، (بيروت: دار الفارابي، الطبعة 1، 2007)، ص 30، وانظر أيضا، ص 312.

¹⁵ نفس المرجع، ص 30.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

ويعرفها عمارة بأنها: «العلم، الذي يوضع في الممارسة والتطبيق، من أجل تغيير المجتمع تغييراً جذرياً وشاملاً، والانتقال به من مرحلة تطويرية معينة إلى أخرى أكثر تقدماً، الأمر الذي يتيح للقوى الاجتماعية المتقدمة في هذا المجتمع أن تأخذ بيدها مقاليد الأمور، فتصنع الحياة الأكثر ملاءمة وتمكيناً لسعادة الإنسان ورفاهيته، محققة بذلك خطوة على درب التقدم الإنساني نحو مثله العليا التي ستظل دائماً وأبداً زاخرة بالجديد الذي يغري بالتقدم ويستعصي على النفاذ والتحقيق»¹⁶.

ويعرفها الباحث العربي عزمي بشاراً بأنها «حراك جماهيري يتقصد التغيير وهدفه (سعادة الشعب)، فالثورة خروج إلى الحق ودفع للظلم هي فرصة للتحرر من الكبت والحاجة والخوف والاستبداد، نحو معانقة المحتوى الحقيقي للحرية عموماً، والحرية السياسية خصوصاً المتمثلة أساساً في المشاركة في الشأن العام، والمساهمة في رسم سياسات الدولة والتمتع بالحقوق المدنية العامة والخاصة»¹⁷.

هكذا نرى أن مفهوم الثورة هو مفهوم حيوي يتطور بتطور الأحداث التاريخية. ففي بعض الأحيان تنشأ الثورة كرد فعل على واقع قائم، وفي أحيان أخرى تسبق الواقع كفكرة مثالية. وبالتالي، فإن الثورة هي نتاج تفاعل ديناميكي بين الواقع النظري والواقع العملي. وقد شهد هذا المفهوم تحولات متعددة عبر التاريخ، فمن كونه يعني العودة إلى الأصل، أصبح يدل على التغيير الجذري، ثم على القطيعة الشاملة وإعادة البناء. وتباينت رؤى الفلاسفة والمفكرين حول الثورة، فمنهم من رآها وسيلة لتأسيس مجتمع ديمقراطي يحمي حقوق الفرد، ومنهم من رآها كصراع طبقي ينتهي بسيطرة الطبقة العاملة. وغيرها من الرؤى والتعريفات.

ثانياً: الأيدولوجيا كمحرك للتغيير الثوري.

يؤكد مجموعة من الباحثين أن الأيدولوجيا هي المحرك الأساسي للثورات الناجحة. وهي القوة الدافعة وراء أي تغيير، فهي تشكل الإطار الفكري الذي يحدد أهداف الثورة ويوفر الدافع المعنوي للمشاركين فيها. ويشدد هؤلاء على الدور الحاسم للأيدولوجيا في تحفيز الجماهير وتوجيه طاقاتهم نحو تحقيق التغيير. فهي تعمل كقوة دافعة نفسية قوية، وتوفر الإجابات على الأسئلة الكبرى حول أسباب الثورة وأهدافها، وتوفر الإطار

¹⁶ محمد عمارة، مرجع سبق ذكره، ص 10. وانظر أيضاً: محمد عمارة، «مصطلح الثورة...ماذا يعني؟»، مجلة الهلال، العدد (2)، (1)، فبراير 1999، ص 38.

¹⁷ أنور الجمعاوي، «المثقف العربي مفكراً في الثورة: قراءة في ماهية الثورة ودواعيها وتحدياتها من منظور عزمي بشار»، قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية، المجلد (2018)، العدد (5) (30 إبريل/نيسان 2018)، ص 421.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

الاستراتيجي الذي يحدد الأهداف طويلة الأجل والخطوات اللازمة لتحقيقها. كما تساهم الأيديولوجيا -حسب هذا المنظور- في بناء وحدة متماسكة بين صفوف الثوار، مما يزيد من قدرتهم على مواجهة التحديات والصعاب التي تفرضها قوى الثورة المضادة سواء كانت قوى داخلية أو خارجية.

إن فهم الثورات وفقا لهذا الاتجاه يتطلب منا أن نتجاوز التحليل المادي السطحي للأحداث، وأن نغوص في عالم الأفكار والقيم التي تشكل روحها ودافعها. فالثورة ليست مجرد نتيجة لتراكم التناقضات الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل هي ثمرة لوعي فكري متنامٍ يطمح إلى تغيير النظام القائم. والأفكار، بهذا المعنى، هي القوة الدافعة التي تشكل هوية الثورة وتحدد أهدافها.

وتاريخ الثورات حافل بأمثلة تثبت ما للأفكار والأيديولوجيا من أهمية ودور في نجاح الثورات وفشلها فالأيديولوجية الاشتراكية، على سبيل المثال، كانت القوة الدافعة وراء ثورة 1917 الروسية، بينما عانى الثوار الصينيون في 1927 من تشتت الأهداف بسبب غياب أيديولوجية موحدة واضحة. كما تكشف لنا الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر أن الأفكار القوية يمكن أن تحدث تحولات جذرية حتى لو كانت آثارها المباشرة محدودة. فالأفكار التي ولدتها هذه الثورة، مثل سيادة الشعب وحقوق الإنسان، شكلت أساساً للفكر الليبرالي الحديث وألهمت ثورات أخرى في مختلف أنحاء العالم.

لقد كانت الثورة الفرنسية، بوصفها إحدى أهم الثورات في التاريخ، تجسيدا حيا لقوة الأفكار في تغيير مسار الأمم. فقد حملت هذه الثورة على عاتقها راية الحرية والمساواة والإخاء، وهي قيم سامية ألهمت شعوب العالم أجمع وأصبحت بمثابة منارة تضيء طريقها نحو التحرر من الاستبداد والظلم. كما أن الأفكار التي حملتها الثورة الفرنسية شكلت الأساس الذي بنيت عليه العديد من الدساتير الحديثة، والتي كفلت الحقوق والحريات الأساسية للإنسان.

أما الثورة الروسية، فقد حملت في طياتها أفكارا ثورية أخرى، تتمثل في الاشتراكية والشيوعية. وقد أحدثت هذه الأفكار تحولات عميقة في النظام الاقتصادي والاجتماعي في العديد من الدول، حيث سعت إلى بناء مجتمع قائم على العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع أفرادها. ورغم الجدل الذي أثير حول هذه الأفكار، إلا أنها لا تزال تمثل أحد أهم التيارات الفكرية التي أثرت على مجرى التاريخ.

ورغم شح الإمكانات المادية وتفاوت التسلح، نجحت الثورة الجزائرية عام 1954 في هزيمة أقوى جيوش العالم آنذاك، الجيش الفرنسي المدعوم بقوة من الحلف الأطلسي. وقد كان هذا الانتصار التاريخي ثمرة لتضحيات جسام قدمها الشعب الجزائري، وعزيمة لا تلين، وإيمان راسخ بالقضية. لقد لعبت القيم

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

الإسلامية الأصيلة دوراً حاسماً في صمود الشعب الجزائري وتماسكه، فالتشبث بالدين والأخلاق الحميدة، والوحدة الوطنية، والإيمان بالقدرة على التغيير، هي التي مكنت الثوار من مواجهة آلة القتل الفرنسية بكل شجاعة وتصميم. إن الثورة الجزائرية ليست مجرد انتصار عسكري، بل هي انتصار للإرادة الحرة، والقيم الإنسانية، والتسامح، وهي مصدر إلهام للأجيال الحالية والمستقبلية.

إن ما يميز الثورات الكبرى مثل الثورة البورجوازية الإنجليزية والثورة الفرنسية والثورة الروسية والثورة الشيوعية الصينية عن حالات الاضطراب السياسي الأخرى. هو أهمية التجديد والتغيير الجذري في الرموز والقيم والمؤسسات خلال فترة الثورة. أن هذا التغيير الجذري قد لا يستمر دائماً، وقد يواجه تحديات داخلية وخارجية، ولكن تأثيره يبقى واضحاً على المدى الطويل. ويؤكد بعض محلي الثورات، مثل أيزنشتات وهنتغتون وغيرهم، بأن «الأحداث تعتبر ثورات عظيمة فقط إذا كانت تتضمن هذا الرفض للتقاليد وإعادة البناء الرمزي، وأن الأزمات الأخرى في العصر الحديث المبكر تنطوي فقط على تمرد وصراعات عائلية، ولكن ليس تغييراً اجتماعياً»¹⁸.

ويرفض أصحاب هذا الرأي المبدأ الماركسي القائل أن الأساس المادي (Ifra-Structure) أو البناء الأسفل، هو الأصل في التغيير الاجتماعي، ويرون أن السلاح الأيدولوجي الفكري هو أقوى الأسلحة وأمضاها فالفكر هو في واقع امره السلاح الثوري الرهيب فوراء كل ثورة فلسفة لتغيير الواقع، أو مذهب يحرك العقول أو دعوى تتحكم في مسلك الجماهير...ولما كان ذلك كذلك، فقد تصبح الأيدولوجيا هي الدعوى الدينية أو الخلقية التي تجدد القيم فنتحقق في الفكر الذي يحرك الجماهير، أو المذهب السياسي الذي يغير السلوك ويبدل الجماعات، ومن ثم قد تصبح الأيدولوجيا أحياناً هي الثورة التي تقلب الأوضاع بتتمة الانسان، وتطوير الآمل وتغيير الاتجاهات والميول¹⁹.

فعلى عكس من المنظور الماركسي يرى أصحاب هذا الرأي ان الأيدولوجيات تلعب دوراً هاماً في تشكيل المجتمعات السياسية. فهي ليست مجرد مجموعة من الأفكار والمعتقدات، بل هي نظام رمزي معقد يستخدم لتنظيم السلوك الاجتماعي والسياسي. فـ «من خلال بناء الأيدولوجيات، أي الصور النمطية للنظام الاجتماعي، يجعل الإنسان من نفسه كائناً سياسياً. والإنسان هو صانع ذاته، فهو يخلق من قدرته العامة على بناء النماذج الرمزية القدرات المحددة التي تميزه، والأيدولوجيا نوع من الأنظمة الرمزية الثقافية. في

¹⁸ Jack A. Goldstone, «Ideology, Cultural Frameworks, and the Process of Revolution», **Theory and Society**, Vol (20), No (4) (Aug.1991), pp. 433-434.

¹⁹ قباري إسماعيل، علم الاجتماع والأيدولوجيات، (الإسكندرية: المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر، 1977)، ص 159.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

المجتمع، تكون الأنواع المختلفة من الأنظمة الرمزية الثقافية مصادر خارجية للمعلومات وتعمل كقالب لتنظيم العمليات الاجتماعية والنفسية. تدخل هذه الأنظمة حيز التنفيذ عندما تحتوي على نوع معين من المعلومات مفقود في موقف الحياة اليومية، أي عندما تكون الأدلة المؤسسية للسلوك أو الفكر أو الشعور ضعيفة أو غائبة»²⁰.

ومن ثم فهي تعتبر من العوامل الحاسمة في أوقات التغيير الاجتماعي والسياسي، حيث تقدم إطاراً تفكير جديدة تساعد الناس على فهم العالم من حولهم واتخاذ القرارات. «في وقت التغيير الثوري، يزدهر البحث عن صيغ أيديولوجية منهجية، والهدف منها هو إما تعزيز الصيغ الموجودة أو استبدالها. ووظيفة الأيدولوجيا هي تمكين سياسة مستقلة من خلال توفير المفاهيم الموثوقة التي تجعلها ذات معنى والصور المقنعة التي يمكن من خلالها فهمها بشكل معقول... (حيث) تبدأ الأيدولوجيات في أن تصبح مصادر حاسمة للمعنى والمواقف الاجتماعية والسياسية عندما لا تكون التوجهات الثقافية العامة للمجتمع ولا توجهاته العملية الواقعية كافية لتوفير صورة كافية للعملية السياسية»²¹ وعملية التغيير المرجوة.

ويؤكد عالم اجتماع الثورة جاك غولدستون (J. A. Goldstone) على أهمية الأيدولوجيا والثقافة في التغيير. ويرى أن الأيدولوجيا والثقافة تلعب دوراً حاسماً في الثورات، ليس فقط في إشعالها بل أيضاً في تشكيل النظام السياسي الجديد الذي ينشأ بعدها. ويؤكد على أن الثورة ليست حدثاً مفاجئاً بل عملية معقدة تمر بمراحل متتالية، تبدأ بانهيار النظام القديم ثم مرحلة صراع عنيفة على السلطة، وأخيراً مرحلة الاستقرار. ويشدد على أن دور الأيدولوجيات والثقافة يتعاضد بشكل خاص في المرحلتين الأخيرتين، حيث تشكل القوة الدافعة وراء التغيير والتطوير، على عكس المرحلة الأولى التي تتأثر فيها الأيدولوجيات بالعوامل المادية والاجتماعية. «في المراحل التالية، عندما تنهار القيود المؤسسية للنظام القديم، تكتسب الأيدولوجيا والثقافة زخماً خاصاً بها. في الواقع، في المرحلتين الثانية والثالثة، تلعب الأيدولوجيا والثقافة دوراً قيادياً، بدلاً من دور تابع»²².

إذاً وفقاً لما يرى فإن الثورات تعتمد على مجموعة من الأدوات لكسب الدعم الشعبي، تبدأ بتلبية المطالب الاقتصادية والاجتماعية، مثل التصحيح وإعادة التوزيع. لكن هذه الأدوات قد تفقد فعاليتها مع مرور الوقت، مما يستدعي اللجوء إلى أيديولوجية أكثر شمولية مثل «القومية»، التي تجمع مختلف المجموعات

²⁰ Kavous Ardalan, **Understanding Revolution: A Multi-Paradigmatic Approach**, (Springer Nature, 2020), p 135, <https://doi.org/10.1007/978-3-030-47591-8>.

²¹ Ibid, p 135.

²² Jack Goldstone, Op.cit, p 408.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

حول هدف مشترك. وهذا لكي تحافظ الثورة على زخمها وولاء الجماهير والحشود «يلزم أيدولوجية أطول أمداً توحد المجموعات المختلفة في قضية الثورة. في هذا السياق، تعدّ القومية أداة مثالية، حيث يمكن تجديد حماس الثورة من خلال البحث عن (أعداء) الثورة، أو بشكل أدق، (الشعب) أو (الأمة). وبهذا، تتقدم الثورات عادةً من رؤية معتدلة في البداية، إلى رؤية أكثر راديكالية تقوم على إعادة التوزيع، وصولاً إلى رؤية قومية أوسع»²³.

من جهته يؤكد جوردان إليوت (Jordan Elliott) أن «العامل الحاسم في تحديد مصير الثورة ليس سياسات الحكومات أو حالة المجتمعات السابقة وحسب، بل يكمن في طبيعة الأيدولوجية للجماعة الثورية ذاتها»²⁴ فالأيدولوجيات التي تحملها الجماعات الثورية - وفقاً له- تعتبر من العوامل الحاسمة في تحديد طبيعة الثورة ونتائجها. فالأيدولوجيا ليست مجرد مجموعة من الأفكار، بل هي قوة دافعة توجه سلوك الأفراد والجماعات. ومن خلال دراسة هذه الأيدولوجيات المختلفة، يمكننا فهم الدوافع التي تحرك الثوار وتوقع ردود أفعالهم تجاه الأحداث المختلفة. وعلى سبيل المثال، يمكننا أن نتوقع أن تكون الثورات الإسلامية أكثر ميلاً إلى بناء دول دينية، بينما تسعى الثورات الشيوعية إلى بناء دول اشتراكية. وبالتالي، فإن فهم هذه الاختلافات الأيدولوجية يساعد الحكومات الأخرى على تطوير استراتيجيات أكثر فعالية للتعامل مع تلك الثورات.

وفي هذا الإطار يتساءل الباحث الجزائري عبد الرزاق بلعقروز عن أي العوامل أكثر تأثيراً في إشعال روح التغيير الثوري وتحويل التركيبة السياسية والاجتماعية إلى تركيبة أخرى تختلف عن التي تخلفها؟ أي تغيير لنسيج المجتمع؟ هل تتم المراهنة على إقناع الأمة بوجود مجموعة من المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ ليكون هذا الإقناع شرطاً كافياً؟ أم أن المراهنة تبدأ من التعبئة العقلية لكنها تحتاج إلى العاطفة الدينية من أجل أن تنهض الأمة وتثور وتضحى من أجل هذا المبدأ الروحي بكل إمكاناتها وإمكاناتها؟

ويجيب بأن وجود مظالم سياسية أو اجتماعية ليست دوافع كافية من أجل الإنهاض وبت الحيوية في الإنسان، فالثورة تنشأ في الغالب عن «عوامل عقلية كالقضاء على ظلم فادح أو استبداد ممقوت أو ملك يبيغضه الشعب، ومع أن العقل هو أصل الثورة، فإن الأسباب التي تهيئها لا تؤثر في الجماعات إلا بعد أن تتحول إلى عواطف، فإذا أمكن بالعقل إظهار ما يجب هدمه من المظالم وجب لتحريك تلك الجماعات إفعام

²³ Ibid, pp. 424-425.

²⁴ Jordan Elliott, «Revolutionary Ideology in the Outcomes of Social Revolutions», **The PIT Journal**, Cycle 4, 2013. <https://tinyurl.com/yethfrdt>, (14/09/2024).

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

قلوبها بالآمال، وهذا أمر لا ينال إلا إذا استعين بعناصر العاطفة والتدين التي تجعل الإنسان قادرا على السير». ²⁵

نخلص في الأخير أن أنصار هذا الرأي يتفقون أنه لا يمكن للإنسان أن يتصور أي عمل سياسي، وأي عمل ثوري على وجه الخصوص، من دون أيدولوجيا تحركه وتوجهه. فالأيدولوجيا بمثابة القوة الدافعة التي تحفز الأفراد وتوحد الجماعات، وتوفر لهم الإطار الفكري الذي يبرر أفعالهم ويقنع الآخرين بصحته. ورغم الانتقادات الموجهة للأيدولوجيا - حتى من قبل بعض هؤلاء - من حيث انحيازها ومصلحتها وعدم علميتها، إلا أنها تبقى أداة أساسية في تشكيل الوعي الجماعي وتوجيه مسار التغيير السياسي والثوري المطلوب.

ثالثا: الأيدولوجيا كعائق أمام التغيير الثوري

على النقيض من الرأي السابق، يرى العديد من المفكرين، خاصة من أنصار الماركسية الكلاسيكية والنقدية، أن الأيدولوجيا تلعب دورا سلبيا في العملية الثورية. فهم يرون أنها تعمل على تثبيت النظام القائم، وتقديم تفسيرات مغلوطة للواقع الاجتماعي، وذلك لحماية مصالح القوى الحاكمة. هذا الرأي، الذي تجده في أعمال مفكرين كبار مثل ماركس وحنة أرندت وبول ريكور وغرامشي وألتوسير وبيير بورديو وجيجيك وغيرهم، يؤكد أن الأيدولوجيا تؤثر بشكل كبير على سلوك الأفراد، وتشكل عائقا أمام أي تغيير جذري للمجتمع.

تشير الأيدولوجيا، وفقا لهذا الرأي، إلى مجموعة من الأفكار والمعتقدات والصور النمطية التي تعمل على تشويه الواقع الاجتماعي وإعاقة التغيير. فهي بمثابة أداة للسيطرة، تُستخدم لتبرير الوضع الراهن وحماية مصالح الفئات الحاكمة. كما أنها تعمل على تحويل الأفراد إلى عناصر تابعة لنظام اجتماعي معين، وذلك من خلال نشر أفكار وأيدولوجيات مهيمنة. هذا التصور للأيدولوجيا يختلف عن النظريات التي تركز على دورها كعامل للتغيير الاجتماعي، أو أداة للثورة على الوضع القائم، فالأيدولوجيا، كما يراها هؤلاء، هي أبسط من ذلك بكثير، فهي تساهم في تشكيل الوعي الجماعي وتوجيه السلوك الاجتماعي، بما يخدم مصالح الفئة

²⁵ عبد الرزاق بلعقروز، «القداصة الدينية والتغيير الثوري: كيف أن العجز عن التدين هو عجز عن الثورة»، مجلة هرمس، المجلد (2)، العدد (1)، (يناير 2013)، ص211.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

المسيطرة وبالتالي فإن دورها الأساسي هو في الحفاظ على الهيمنة الاجتماعية، والحيلولة دون وقوع تغيير حقيقي في المجتمع سواء عن طريق الثورة أو غيرها من أدوات التغيير الأخرى.

نفهم ان الأيديولوجيا في هذه الحالة تتحول إلى أداة فعالة في تشكيل الوعي الجماعي، حيث يتم غرس قوالب نمطية ومقولات جاهزة في أذهان الأفراد عبر تكرارها المستمر. هذا التكرار المتواصل يخلق وعياً زائفاً يمنع الناس من التفكير النقدي ويحجب عنهم رؤية الواقع بوضوح. وتسعى صناعة الثقافة إلى إنتاج هوية جماعية موحدة، وتقمع أي أفكار أو آراء تخرج عن الإطار الأيديولوجي السائد. وبالتالي، فإن الأيديولوجيا لا تعكس الواقع بقدر ما تشوهه، وتستخدم لتبرير الوضع الراهن وحماية مصالح القوى المسيطرة.²⁶

وتسيطر الأيديولوجيا السائدة على عقول الناس من خلال وسائل الإعلام والثقافة الشعبية، حيث تعمل على تثبيت الوضع القائم وتوجيه الأفراد نحو القبول والتسليم بالأوضاع الحالية وتروج لتكرار وتبرير الأوضاع الحالية وسلب كل ما هو متسامٍ ونقدي. فلم تعد الأيديولوجيا تقدم فكرة جديدة أو تخلق ذاتاً جديدة، بل تؤكد الوضع الراهن وتعلم الاستقرار والأمن؛ ولم تعد تعرض على العمل السياسي، بل تشجع على السلبية والانصياع. وتولد الأيديولوجيا وعياً زائفاً من خلال إخفاء التناقضات الاجتماعية وقمع البدائل بشكل منهجي. وتُعاش الأيديولوجيا كحس سليم وواقعي، وكأنها الطريقة التي تسير بها الأمور. وتصبح الأيديولوجيا الصوت الداخلي للسلطة الاجتماعية الذي يدفع الأفراد إلى فعل ما قرر المجتمع أن عليهم فعله. وتحتل الأيديولوجيا أحلام الناس وآمالهم وخيالاتهم وأسبابهم، وتحقق الهيمنة، وبالتالي تحت الناس على عدم الخروج في الفكر والفعل عن حدود النظام القائم. وتضع الفردية والاستقلالية نتيجة لزيادة الانقياد والانصياع في دخل هذه المجتمعات.²⁷

والشواهد التاريخية الدالة على ان الأيديولوجيا أداة للسيطرة ومحاربة التغيير كثيرة هي الأخرى، وخير مثال ما حصل في الصراع بين أكبر ايديولوجيتين في التاريخ الحديث، فمع صعود البرجوازية إلى السلطة وتحكمها في مقاليد الأمور، سيطرت أفكارها وأيديولوجياتها على المجتمع. لقد استخدمت البرجوازية أيديولوجيتها الليبرالية، التي تتحدث عن الحرية والمساواة والأخوة، لتبرير سيطرتها على الطبقة العاملة وكبلت أي مقاومة. إلا أن الفجوة بين هذه الأيديولوجيا والممارسات الفعلية للبرجوازية كانت كبيرة، حيث كشفت الأفعال عن وجه آخر مغاير تماماً للوعود المعطاة. وبالتالي، تحولت الأيديولوجيا البرجوازية من أداة للثورة إلى أداة للهيمنة والسيطرة. في المقابل، ظهرت الأيديولوجية البروليتارية كرد فعل على هيمنة البرجوازية،

²⁶ Kavous Ardalan, Op.cit, p 143.

²⁷ Ibid, p-p 143-144.

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

حاملة معها نقدًا لاذعًا لها، إلا أنها، مع مرور الوقت، تحولت هي الأخرى إلى أدوات للسيطرة عندما وصلت إلى السلطة، حيث استخدمتها النخب الحاكمة الجديدة لتبرير حكمها وتثبيتته. وبذلك، تتكرر نفس الدورة: فالأيدولوجيا، سواء كانت برجوازية أم بروليتارية، تبدأ كأداة للتحرر والتغيير، ثم تتحول إلى أداة للسيطرة والهيمنة.

وفي هذا السياق يرى سلافوي جيجيك (Slavoj Žižek) أن الأيدولوجيا لا تقتصر وظيفتها على افشال الثورة القائمة وإنما هدفها هو منعها من الأساس والحيلولة دون وقوع أي عمل ثوري، ويتكلم جيجيك أن أحد آليات الأيدولوجيا الليبرالية الغربية استخدام ما اصطلح عليه «آلية المتنفس الأيدولوجي» وهي أداة تستخدمها الطبقة المهيمنة (الحاكمة) - خاصة في ظل الأنظمة الليبرالية الغربية- حيث يؤدي وظيفة مهمة تتمثل في إفساح المجال أمام الأفراد للتعبير عن تدمرهم شريطة ألا يؤدي ذلك إلى تغيير الوضع القائم جذرياً. ويوضح جيجيك هذا المتطلب بقوله: «إن الطبقة الحاكمة دائماً ما توفر مجالا للطبقات الدنيا للتعبير عن غضبها، بشرط عدم المساس بالمصالح الاقتصادية القائمة» وهذا المتنفس يبرز في المجال الثقافي حيث تنزع السلطة الحاكمة إلى «توفير المزيد من الحريات الفكرية، وفتح الباب أمام النضال من أجل حقوق المرأة، وحرية الجنس، وتعدد الثقافات، بوصفها مداخل لإبقاء هذه الطبقات تحت السيطرة» وهنا تقوم السلطة بما يسميه جيجيك عملية «إزاحة» للصراع الطبقي الذي هو صراع اقتصادي-اجتماعي بالأساس واختزاله إلى مجرد اختلافات ثقافية (صراع ثقافي) فيما يسميه جيجيك بـ «متنفس للتطابق والانسجام الأيدولوجي»²⁸

معنى هذا أن السلطة الحاكمة -في الأنظمة الرأسمالية- قد لا تمنع وقوع التغيير، بل بالعكس قد تدعو إليه. لكن ونظراً لأن التغيير لا يتعدى حدود المظاهر الشكلية، فإن الأوضاع تظل كما هي عليه وتظل الأيدولوجيا الليبرالية مهيمنة. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى الأيدولوجيا -كما يقول جيجيك- بوصفها «عاملاً للتسكين الخيالي» (imaginary Mitigating) لصدمة ما يجري على أرض الواقع... إن هذه الهدف من هذا التسكين للحيلولة دون وقوع تغييرات جذرية للواقع، ولكي يبقون على النظام الرأسمالي ولذلك فإن هذا المتنفس يؤدي إلى حفظ التوازن الاجتماعي، دون وقوف الرأسمالية في طريق مسدود، أو الدخول في حالة من الاستياء العام والتي من شأنها أن تهدد بإعادة توزيع كلي للثروة على نحو عادل.²⁹

²⁸ حمدي عبد الحميد محمد الشريف، «الأيدولوجيا والثورة عند سلافوي جيجيك»، سلسلة الأبحاث الخاصة بالمؤتمر السنوي الدولي: كيف

نقرأ الفلسفة، جامعة الإسكندرية، المجلد (4)، العدد (2)، (2018)، ص-ص 1220-1221.

²⁹ نفس المرجع، ص 1222.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

وهكذا، فإن الأيديولوجيا تعمل من خلال هذا المستلزم على منع وقوع أي تغيير على أرض الواقع، وبالتالي فهي تؤثر سلباً في إدراك الأفراد لواقعهم، وذلك عن طريق بعض الإضافات والإصلاحات الخارجية في النظام القائم. ويوضح جاري أولسن (Gary Olson) ولين ورشام (Lynn Worsham) ذلك بقولهما: «في ظل الأيديولوجيا، يجد الأفراد أنفسهم فاعلين ونشطين، لكن وجودهم الحقيقي يظل خاملاً وسلبياً».³⁰ وبمعنى آخر يقوم الأفراد بأفعال معينة لا تغير شيئاً، ولا تؤدي إلى أي إنجاز ملموس، وإنما لكي تضمن الأيديولوجيا المهيمنة من خلال ذلك عدم حصول أي تغيير حقيقي؛ الأمر الذي يجعلهم أمام نوع من الاستسلام والرضا بالأمر الواقع.

وإذا كان دور الأيديولوجيا، كما يرى أنصار هذا الرأي ورأينا في الفقرات القليلة السابقة، هو منع نشوء الثورات من الأساس، فإن دورها في إفشال الثورات القائمة يبدو أكثر وضوحاً. فكثيراً ما تكون الأيديولوجيات جامدة وغير مرنة، مما يجعلها غير قادرة على التكيف مع التحديات المتغيرة التي تواجه الثورات. كما أن التناقض بين الأيديولوجيات النظرية والواقع المعاش قد يؤدي إلى فقدان الثوار لدعم الجماهير، ويشجع على الانقسامات والصراعات الداخلية. وعندما تكون الأيديولوجيا غير واضحة المعالم أو متناقضة، فإنها تفقد قدرتها على توحيد الجهود وتوجيه الثورة نحو هدف واضح، كما أن تنوع الأيديولوجيات وتعارضها أحياناً ضمن الحركات الثورية، قد تؤدي إلى صراعات داخلية وتنافس على الزعامة، مما يشتت الجهود ويضعف التماسك الداخلي للحركة. ويعرقل تحقيق الأهداف الثورية المشتركة ويجعلها عرضة للانقسام والفشل.

ويزعم أصحاب هذا التصور أن تتبع تاريخ الثورات تظهر أن الأيديولوجيات السياسية لم تكن محركاً أساسياً لاندلاعها ولا شرطاً لإنجاحها، بل على العكس من ذلك أدت إلى فشلها، وغالباً ما تأتي الأيديولوجيا بعد النجاح الثوري وليس في بداية الثورة أو أثناء حدوثها. فالأحزاب والأيديولوجيات تستغل زخم الثورة لتقرض رؤيتها وتبني نظاماً سياسياً جديداً. هذا ما حدث في ثورات مثل روسيا وإيران وكوبا - حسب رأيهم-، حيث تحولت ثورات شعبية ضد الظلم إلى أنظمة ذات أيديولوجيات رسمية. ويمكن القول إن الأيديولوجية في مثل هذه الحالات هي نتاج للثورة وليس العكس. ففي أثناء الثورات تحرص حتى الأحزاب الأيديولوجية على أن تؤكد على برنامج حد أدنى يجمع فئات واسعة من الشعب، وقوى سياسية واجتماعية مختلفة، وتحاول أن

³⁰ نفس المرجع، ص-ص 1222-1223.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

تخفي أو تتجمل برامجها الخاصة بها، إلى ما بعد تمكنها من الوصول إلى السلطة بواسطة الثورة.³¹ إذ لا يمكن تصور جماهير واسعة مدفوعة بالرغبة في إقامة نظام حكم بناء على أيديولوجية حزب من الأحزاب.³²

الخاتمة:

في هذا البحث حاولنا دراسة تأثير الأيديولوجيا على الثورة وبيننا ان طبيعة هذا التأثير مثيرة للجدل والخلاف. فمن ناحية، يرى البعض أن الأيديولوجيا هي القوة الدافعة وراء الثورات، وأنها توفر الإطار الفكري والسياسي الذي يوحد الجماهير ويوجه حراكها. ومن ناحية أخرى، يرى البعض الآخر أن الأيديولوجيا قد تكون عائقاً أمام تحقيق الوحدة الوطنية والتوافق على رؤية مشتركة للمستقبل، وأنها قد تؤدي إلى الانقسام والتطرف.

من ثم يمكن القول بأن الأيديولوجيا تلعب دوراً حاسماً في الثورات، ولكن هذا الدور ليس دوراً جامداً أو محدداً. فالأيديولوجيا يمكن أن تكون قوة إيجابية تساهم في تحقيق التغيير، ولكنها يمكن أن تكون أيضاً قوة سلبية تعيق التغيير. ولذلك، فإن فهم طبيعة العلاقة بين الأيديولوجيا والثورات أمر بالغ الأهمية لتطوير استراتيجيات ناجحة لتحقيق التغيير الاجتماعي والسياسي.

فالعلاقة بين الأيديولوجيا والثورات ليست علاقة ثنائية قطعية (تكامل أو تقاطع) بل هي علاقة متداخلة ومعقدة. فالأيديولوجيا يمكن أن تكون محركاً قوياً للتغيير في ظل ظروف معينة، ولكنها قد تتحول إلى عائق في ظل ظروف أخرى. الأمر يتوقف على العديد من العوامل، منها:

- طبيعة الأيديولوجيا: هل هي أيديولوجيا مرنة وقادرة على التكيف مع التغيرات؟ أم أنها أيديولوجيا جامدة ومتشددة؟

- الظروف التاريخية والاجتماعية: هل الظروف مواتية للتغيير الثوري؟ وما هي القوى الاجتماعية التي تدعم الأيديولوجيا؟

³¹ عزمي بشارة، مرجع سبق ذكره، ص 85.

³² نفس المرجع، ص 86.

الأيديولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

- القيادة السياسية: هل القيادة الثورية قادرة على توظيف الأيديولوجيا بشكل فعال لتحقيق أهداف الثورة؟

ورغم هذا التباين حيال طبيعة هذا التأثير إلا أن أهمية الأيديولوجيا في اندلاع الثورة ومسارها ونجاحها، وهذا ما كشفته العديد من التجارب الثورية في التاريخ الحديث والمعاصر، لا يمكن إنكارها فهي تشكل ركيزة أساسية لنجاح الثورات. فوجود أيديولوجيا جامعة وموحدة بين صفوف الثوار يساهم في تعزيز التماسك والتضامن، ويوجه جهودهم نحو هدف مشترك. وغياب هذا العامل يؤدي بلا شك إلى تشتت الجهود وتنازع الأولويات، مما يضعف الثورة ويزيد من فرص فشلها. ومع ذلك، يجب التأكيد على أن الأيديولوجيا ليست العامل الوحيد الذي يحكم مسار الثورات، فهناك عوامل أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية وحتى خارجية تلعب دورًا هامًا. إلا أن الأيديولوجيا تبقى عاملاً محوريًا يؤثر بشكل كبير في نجاح أو فشل الثورات.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- الأسود، شعبان الطاهر، علم الاجتماع السياسي قضايا العنف السياسي والثورة. (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 2003)
- سبيلا، محمد وعبد السلام بن عبد العالي، الأيديولوجيا، (دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية، 2006)
- عمارة، محمد، الإسلام والثورة، (القاهرة: دار الشروق، ط 3، 1988).
- فوران، جون (محرر)، مستقبل الثورات، تر: تانيا بشارة، (بيروت: دار الفارابي، الطبعة 1، 2007).
- قباري، إسماعيل، علم الاجتماع والايديولوجيات ، (الإسكندرية: المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر، 1977).

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

- كرازين، يوري، علم الثورة في النظرية الماركسية ، تر: سمير كرم. (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1975).
- الكيالي، عبد الوهاب، الموسوعة السياسية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الأول 1979).
- مانهايم، كارل، الايديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، تر: وتقديم محمد رجا عبد الرحمن الديريني (الكويت: شركة المكتبات الكويتية، ط1، أكتوبر 1980).

ثانيا: الرسائل والمذكرات

- الأنصاري، عبد الله عبد الوهاب محمد، الأيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة: دراسة مقارنة بين كارل مانهايم وتوماس كون ، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الإسكندرية، 2000).

ثالثا: رابعا: المقالات

- البراوي، راشد، «الثورة والانقلاب»، مجلة الهلال، العدد (6)، (01 يونيو 1965).
- بلعقروز، عبد الرزاق، «القداصة الدينية والتغيير الثوري: كيف أن العجز عن التدين هو عجز عن الثورة»، مجلة هرمس، المجلد (2)، العدد (1)، (يناير 2013).
- الجمعاوي، أنور، «المتقف العربي مفكرا في الثورة: قراءة في ماهية الثورة ودواعيها وتحدياتها من منظور عزمي بشارة»، قلمون: المجلة السورية للعلوم الإنسانية ، المجلد (2018)، العدد (5) (30 إبريل/نيسان 2018).
- حمدي، عبد الحميد محمد الشريف، «الأيديولوجيا والثورة عند سلافوي جيچيك»، سلسلة الأبحاث الخاصة بالمؤتمر السنوي الدولي: كيف نقرأ الفلسفة ، جامعة الإسكندرية، المجلد (4)، العدد (2)، (2018)
- عمارة، محمد، «مصطلح الثورة...ماذا يعني؟؟»، مجلة الهلال ، العدد (2)، (1 فبراير 1999).



ردمد إلكتروني: 2661-7404

المجلة الأكاديمية للبحوث القانونية والسياسية

ردمد ورقي: 2571 - 9971

ص.ص: 482 - 460

العدد: الأول

المجلد: التاسع

السنة: 2025

الأيدولوجيا والثورة: قراءة في طبيعة التأثير

- عموري، السعيد، «الأيدولوجيا / الخطاب / النص نحو مقاربة مفاهيمية»، مجلة الأثر، العدد (18)، (جوان 2013).
- Ardalan, Kavous, **Understanding Revolution: A Multi-Paradigmatic Approach**, (Springer Nature, 2020), p 135, <https://doi.org/10.1007/978-3-030-47591-8>.
- Elliott, Jordan, «Revolutionary Ideology in the Outcomes of Social Revolutions», **The PIT Journal**, Cycle 4, 2013. <https://tinyurl.com/yethfrdt>, (14/09/2024).
- Goldstone, Jack, «Ideology, Cultural Frameworks, and the Process of Revolution», **Theory and Society**, Vol (20), No (4) (Aug.1991).